نونية أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس
دراسة بلاغية تحليلية

د. محمد محمد الطاهر مدرس في قسم البلاغة والنقد بالكلية

المقدمة :

بسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{١} الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٢} الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ{٣} مَالِـكِ يَوْمِ الدِّينِ{٤} إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{٥} اهدِنَـا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{٦} صِـرَاطَ الَّـذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{٧}.[1] آمين .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله أفـصح النـاس لـساناً ، وأعلاهم بياناً، وأشرفهم منطقاً، وأبلغهم حديثاً وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين . وبعد :

إن الشعر العربي له من الأهمية الشيء العظيم ، فهو يعكس ما في الحياة من خير وشر، والشاعر دائمًا مرآة عصره ، يتأثر بما يحيط به من ظروف اجتماعيـة وبيئيـة وأخلاقية ... وغيرها ، فيأتي شعره معبراً عن ذلك أيما تعبير ، وبقدر إجادته في كل هذا يكون موقعه من الشعراء .

والشعر العربي مرّ بظروف مختلفة على مرّ العصور ، تستطيع أن تلمـس فـي ثناياه كل ما أحاط بكل عصر من ظروف مختلفة وعوامل أدت إلى قوته أو ضـعفه ، وجعلت لكل عصر سمات شعرية تميزه عن غيره .

والشعر العربي الأندلسي تأثر بالظروف العصيبة التي مرّ بها هذا العصر، فقد بلـغ مجد الأندلسيين ذروته في أواخر الدولة الأموية، وبزوال الأمويين ومجيء الطوائف، بدأ المد ينحسر، والقوة تشيخ، والنور يخبو وكنتيجة حتمية لقيـام هـذه الـدويلات الهزيلـة واقتتالها بدأ الأسبان في شن الهجمات، واسترداد المدن واحدة تلو الأخرى حتى سـقطت آخر تلك القلاع الإسلامية في هذه البلدان وهي مدينة (غرناطة) عام ٨٩٧هـ.

وكانت الفترة الأخيرة فـي بـلاد الأنـدلس سلـسلة مـن الهـزائم والكـوارث والنكبات،والذل والإهانة ، وكل ذلك كان له أثره على الشعراء في ذلك العصر،فانعكس ذلك في شعرهم ، فعبروا عن ذلك بقصائد شـعرية رائعـة ، تلمـس فيهـا الحـزن والبكاء،وإظهار حقد الصليبيين ، والكوارث التي تدمع منها العين دماً ، وينفطـر لهـا القلب كمداً وحزناً وألما على ما حلّ بتلك الديار المسلمة ، وذلك كله شاع وانتشر في شعر الأندلسين (فن رثاء الممالك الزائلة) .

---

[1] سورة الفاتحة .

فرثاء الممالك هو تلك الآثار الأدبية التي وصلت إلينا من جراء انعكاس الحوادث التاريخية التي مرت بالأندلس من الفتح حتى السقوط ، و كذلك الحوادث السياسية وما تضمنته من فتن واضطرابات وخلافات ، كل ذلك أثّر على الأدب بشقيه الشعر والنثر،وعلى النتاج الأدبي آنذاك .

ونونية أبي البقاء الرندي في رثاء تلك الممالك الزائلة لون بديع من الشعر الأندلسي ، تشعر فيها بصدق العاطفة ، وقوة المشاعر ، والتأثر الجم بما حدث في تلك البلاد ، كما تجد في تلك القصيدة صوراً جمالية تتميز بقوة ألفاظها ووضوح معانيها وتماسك بنيانها وقد أجاد فيها الشاعر حتى جعل السامع يشاركه نفس أحاسيسه وألمه .

وقد كان كل ذلك دافعاً لي في تلك الدراسة المتواضعة لهذه القصيدة لإظهار مواطن الإجادة والجمال فيها .

وهذا البحث يشتمل على مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة ثم الفهارس والمراجع.

ففي المقدمة أتحدث عن تأثّر الشعر الأندلسي بالظروف المحيطة به الأمر الذي أدى إلى شيوع غرض رثاء الممالك في ذلك العصر .

وفي التمهيد أتناول الحديث عن العصر الأندلسي من حيث أهم الشعراءفيه، والأغراض الشعرية المستحدثة ، وسمات الشعر الأندلسي .

وفي المبحث الأول أتناول الحديث عن القصيدة من حيث قائلها ، ومناسبتها والأفكار الرئيسة في القصيدة .

وفي المبحث الثاني أتحدث عن ما حوته مقدمة القصيدة من شكوى الدهر وغدره، وضرب المثل بالدول التي سقطت قديماً والملوك الذي فنوا وصاروا مضرباً للمثل .

وفي المبحث الثالث أتحدث عن تحسر الشاعر على المدن الزائلة وهو الغرض الأصلي للقصيدة، والذي ذكر فيه الشاعر تلك المدن وأشهر ما تحويه من علوم وجمال.

وفي المبحث الرابع أتناول حديث الشاعر عن العاطفة الدينية ، واستغفاره المسلمين والاستغاثة بهم ، حيث يخاطب إنسانية المسلم ويثير فيه نبرة الإسلام لنصرة إخوانه .

ثم الخاتمة ، وفيها ذكرت أهم نتائج البحث .

والله أسال أن يجعل لي القبول ، ويجعل في هذه القصيدة التوفيق والسداد إنه سبحانه سميع الدعاء .

تمهيد :

تعد بلاد الأندلس من أكثر البلاد جمالاً ، فطبيعتها خلابة فتن بها الشعراء وكانت كأفضل قطعة من حيث بهاء المنظر وجمال الطبيعة وروعة ماتحويه من أنهار ومناظر خلابة آنذاك .

وقد صُدم المسلمون لسقوط هذه البلدان في أيدي الصليبين صدمة عنيفة ، فقد كانوا يعتقدون أنها القلعة التي لا تسقط ، والحصن المنيع الذي لا تناله يد الأعداء ، فإذا بهذا الحصن يدك ، وبهذا الصرح يهدّم ويتفكك ويفنى ، فكانت المصيبة أكبر من أن تحتمل والخسارة فادحة ، والأمر جلل ، وقد رافق الشعر هذه المرحلة من المجد إلى الطرد ، ومن السعادة إلى الحزن ، فعبروا عن ذلك في قصائد رائعة مؤثرة .

والشعر الأندلسي يتميز بوجه عام بالرقة نظراً لتأثر الشعراء بطبيعة تلك البلاد وما فيها من رياض نضرة ، وأنهار جارية ومناظر خلابة .

(وكان القرن الرابع الهجري هو العصر الذهبي للشعر ، إذ برز كثير من الشعراء : منهم أحمد بن محمد دراج القسطلي ، الذي يقارن ببشار بن برد ، وجعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب ابن شعيب ، وأحمد بن فرج ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد) . [١]

ولما سقطت الخلافة الأموية وقامت دول الطوائف تنافس الملوك في اجتذاب الشعراء إليهم فتألق فن الشعر وازدهر ، فظهر شعراء لهم أهمية عظيمة في ذلك العصر ولهم أثرهم الواضح كان على رأسهم ابن لبانه ، وابن زيدون ،

والمعتمد بن عباد الذي جمع بين الحكم وإتقان الشعر ((فمنذ أن فتح العرب الأندلس على يد موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد سنة ٩٢هـ بدأ عصر الولاة،ثم تبع ذلك العصر الأموى بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس ، ثم تبعه عصر ملوك الطوائف الذي بدأ بسقوط الأمويين ، وقيام عدة ممالك مستقلة، ثم عصر المرابطين، الذي بدأ باستيلاء (ابن تاشفين)على الأندلس وأخيراً عصر الموحدين الذي بدأ عام ٥٤١ هـ وانتهى بدخول الصليبين لتلك البلاد وإسقاط الحكم الإسلامي)) .[٢]

---

[١] في تاريخ وحضارة الإسلام د / السيد عبد العزيز سالم ص ٢٩٣

[٢] خط سير الأدب العربي د/ عبد العزيز قلقيله ص ٣٤٧، ٣٤٨

أقول : منذ أن فتح العرب هذه البلاد وحتى سقوطها ، كان الشعر معاصراً ومعبراً عن تلك العصور المختلفة .

((وصارت الأندلس في عهد الطوائف أندلسات كثيرة ، وراجت سوق العلوم والفنون والآداب محاولة من حكام دول الطوائف لتكون لهم سابقة في هذا الجانب الثقافي)). [١]

(كما كان للأندلسين فضل الريادة والسبق في ابتكار نوعين من فنون الشعر وهما((الموشح والزجل .)) [٢]

وكما ذكرت سابقاً فقد كان لما حبا الله به بلاد الأندلس من جمال الطبيعة أثر كبير في تحريك مشاعر الشعراء ، فرقّ أسلوبهم ، وعذبت ألفاظهم ، وراحوا يتغزلون في تلك الطبيعة الخلابة .

ومن أبرز الفنون الشعرية – الأغراض – في الشعر الأندلسي :

(الغزل ، المدح ، والرثاء ،والحكمة ، و الزهد والتصوف ، والاستعطاف، والهجاء والمجون ، والحنين ، وظهر وازدهر شعر الطبيعة ورثاء المدن والممالك ، واستحدث فن الموشحات والأزجال ، وشعر الاستغاثة). [٣]

إذا فبجانب الشعر العربي وأغراضه المعروفة قبل هذا العصر تجد سمات خاصة للشعر الأندلسي منها التجديد الموضوعي ، حيث تناولوا موضوعات شعرية وأغراض لم تطرق من قبل ، كذلك تجد من تلك السمات التركيز على العاطفة والوجدان والمشاعر فهي تتضح في هذا العصر أكثر من غيره وبذلك فإن من أهم مميزات الشعر الأندلسي رقة العاطفة ، وسهولة الأسلوب ، والمشاعر الفياضة ، ووضوح المعاني ، كما تجد فيه كثرة البديع وشيوع الصور البيانية بصورة ملحوظة من حسن التصوير وقوة التشبيه وبراعة التعبير ، وكل ذلك أضفى على الشعر رونقاً وجمالا، وجعل له القبول والاستحسان .

---

[١] في الأدب الأندلسي د/ محمد رضوان الداية ص ٤٣

[٢] ينظر الموشحات والأزجال الأندلسية في عصر الموحدين د/ فوزي سعيد عيس ص ٥

[٣] الأدب العربي في الأندلس د/ عبد العزيز عفيف ص ١٦٩

نونية أبي البقاء الرندي
في نكبة ورثاء الأندلس

١/ لكل شيء إذا ما تمّ نقصان ... فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ

٢/هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ

٣/ وهذه الدار لا تُبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شانُ

٤/ يمزق الدهر حتماً كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصانُ

٥/وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزنٍ والغمد غمدان

٦/ أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليل وتيجان

٧/ وأين ما شاده شداد في إرمٍ ... وأين ماساسه في الفرس ساسان

٨/ وأين ما حازه قارون من ذهبٍ ... وأين عاد وشداد وقحطان

٩/ أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

١٠/وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلكٍ ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان

١١/ دار الزمان على دارا وقاتله ... ولمّ كسرى فما آواه إيوان

١٢/كأنما الصعب لم يسهل له سبباً ... يوماً ولا ملك الدنيا سليمان

١٣/فجائع الدهر أنواع منوعةٌ ... وللزمان مسرات وأحزان

١٤/ وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حلّ بالإسلام سلوان

١٥/ دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهدّ ثهلان

١٦/ أصابها العين في الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان

١٧/ فاسأل بلنسية ماشأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جبان

١٨/ وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

١٩/ وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

٢٠/قواعدكن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان

٢١/ تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان

٢٢/على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران

٢٣/حيث المساجد قد أضحت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان

٢٤/حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

٢٥/ ياغافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سِنة فالدهر يقظان

٢٦/ وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان

٢٧/ تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... ومالها مع طول الدهر نسيان

٢٨/ ياأيها الملك البيضاء رايته ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

٢٩/ ياراكين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان

٣٠/وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران

٣١/ وراتعين وراء البحر في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

٣٢/ أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

٣٣/ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم ياعباد الله إخوان

٣٤/ كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

٣٥/ألا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان

٣٦/ يامن لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم جور وطغيان

٣٧/ بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الضد عبدان

٣٨/فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان

٣٩/ ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

٤٠/ يارب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان

٤١/ وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان

٤٢/ يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

٤٣/ لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

المبحث الأول
مناسبة القصيدة، وقائلها، والأفكار الرئيسية فيها

أولاً : مناسبة القصيدة :

منذ أن قامت (دويلات الطوائف في الأندلس) في القرن الخامس الهجري وقوة الأندلسيين تتضاءل في الجزيرة في الوقت الذي تزداد فيه قوة الأعداء المتربصين من الدول المجاورة .

ومن المعروف أن الإسلام قد مكث في هذه البلاد فترة طويلة بسبب موجتين اثنتين قدمتا الواحدة تلو الأخرى من المغرب هما : دولة المرابطين ، ودولة الموحدين.

ومنذ أن انحلّت دولة (الموحّدين) دبّ الضعف والانهيار في المدن الأندلسية ، وسقطت الواحدة تلو الأخرى في يد الصليبيين وبعد هذا السقوط ذاق المسلمون في تلك البلاد ألوانا عديدة من الذل والاستعباد والمهانة .

وقد أدرك أبو البقاء الرندي كل ذلك ، وشهد عليه ، وتأثر به ، وتألم له ، فهرع إلى تصوير تلك المآسي من قتل الأندلسيين ، وسفك دمائهم ، وارتداد المستضعفين منهم ، وانزواء الحضارة الإسلامية، وتبدل الأحوال من النقيض إلى النقيض ، فأنشد هذه القصيدة التي تجد فيها استثارة للهمم ، واستغاثة بالمسلمين لنصرة هذه البلاد المنكوبة ، ونصرة إخوانهم ، واستعادة مجد الإسلام في تلك البلاد .

نعم : فقد أدى تقسيم الأندلس إلى دويلات عنصرية مترامية إلى إقدام الصليبيين على غزو البلاد ، ودكّ حصونها الأمر الذي نتج عنه سقوط

(طليطله) قلب الأندلس ، وتلاها استيلاء (القشتاليين) على جميع تلك البلاد، فسقطت دولة (بني جوهر) بقرطبة ، ودولة بني عباد في إشبيلية ، ثم دولة بني الأفطس إلى أن سقطت مدينة (غرناطة) عام ٨٩٧هـ وهي أخر القلاع الإسلامية في تلك البلاد. [1]

---

[1] ينظر الأدب العربي في الأندلس د/ علي محمد سلامة ص ١٧٥

وكان الشاعر أبو البقاء الرندي في مقدمة الشعراء الذين أحسوا بهذه النكبة ، وتأثروا بها فبكى على بلاد الأندلس ، واستبكى معه كل من سمعه بهذه القصيدة النونية الرائعة .

وتعدّ هذه القصيدة من روائع ما قيل في الشعر العربي في رثاء الممالك والمدن ، ومما زاد في شهرتها ارتباطها بتلك الأحداث المؤلمة التي عصفت بدولة الإسلام في الأندلس ، وتلمس في تلك القصيدة صدق العاطفة والمعاني المعبرة ، وإضفاء طابع الحزن عليها ، كما تتميز تلك القصيدة بسهولة الألفاظ ، والابتعاد عن التعقيد اللفظي والمعنوي وذلك لأن الموقف المؤلم الحزين لا يحتمل ذلك كما تشتمل هذه القصيدة في ثناياها على الحكم وأخذ العبر من الأمم السابقة .

وقد استخدم الشاعر المحسنات البديعية من طباق وجناس وسجع وغير ذلك دون تكلف ، وجاء وفق الخاطر ، وملائماً للسياق وكذلك تلمس في القصيدة كثرة الاستفهام لأغراض بلاغية عديدة استدعاها الموقف ، وتطلبها الغرض العام للقصيدة ، فجاء كل ذلك متجانساً ومتناسقا فأثّر في النفس أيّما تأثير ، وجعل المتلقي يشعر ويشارك الشاعر في أحاسيسه الصادقة وتلك هي أهم مميزات القصيدة الناجحة .

ويعد فن (رثاء الممالك) من الفنون الجديدة والمستحدثة في الشعر العربي رغم وجوده في بعض القصائد في الأدب العباسي .كما ورد عند (البحتري) في وصفه لإيوان كسرى ، و(ابن الرومي) في خراب البصرة على يد الزنج ، ولكن نُسِب فن رثاء الممالك الزائلة للشعراء الأندلسيين لكثرته عندهم وشيوعه في شعرهم ،واتساع القول فيه ، حتى صار نوعاً خاصاً وفريداً عندهم .

وتشعر في رثاء الأندلس بنوع فريد من الحزن العميق ، وذلك راجع لأنها البلاد الأوروبية التي خضعت للإسلام ما يقرب من ثمانية قرون ، حتى سقطت في أيدي الصليبين ، فتبدل حال البلاد وسكانها من عز إلى ذل ومن كرم إلى امتهان ومن سعادة إلى حزن ، ومن مجد إلى طرد ومن أسياد إلى عبيد .

(ونونية أبي البقاء الرندي هي أروع وأشجى ما جادت به قريحة شاعر أندلسي، لا في رثاء مدينة بعينها كما هي عند غيره من أمثال ابن خفاجة الذي رثى مدينة

بلنسية، ورائية الوزير الكاتب في رثاء قتلى بني الأفطس وغيرها ، بل في رثـاء كـل الأندلس ويصور نكبته التي تعلو على كل فجائع الدهر) . [١]

ثانياً : قائل القصيدة :

(هو صالح بن يزيد بن صالح بن شريف الرندي ، من شعراء العـصر الأندلـسي المعروفين ، وكنيته أبو البقاء ، وقد اختلف المؤرخون في سنة مولده ، فقيل ولد سـنة ٦٠١ هـ ، الموافق ١٢٠٤ م ، وتوفي سنة ١٨٤ هـ الموافق ١٢٨٥ م وكان الرندي شخصية مرموقة في عصره علماً وأدباً وشعراً وقد اشتهر بهذه القـصيدة التـي تعـد نموذجاً من أفضل – إن لم تكن أفضل – قصائد رثاء بلاد الأندلس على الإطلاق). [٢]

يقول عنه الدكتور شوقي ضيف :

(وكان الرندي خاتمة أدباء الأندلس على الإطلاق ، بارع التصرف فـي منظـوم الكلام ومنثورة ، كان فقيهاً حافظاً ، وله مقامات بديعية في أغـراض شـتى ، وقـد قضى معظم حياته في مدينة (رنده) التي نسب إليها ، وكان شاعراً يجيد فـن المـدح والغزل على وجه الخصوص). [٣]

ويتميز شعر أبي البقاء الرندي بأنه سهل المأخذ ، عذب الألفاظ ، واضح المعاني ، وهو شاعر رقيق العاطفة ، رهف الإحساس صادق في مشاعره ، ومؤثر فـي نفـوس السامعين ، تشعر في شعره رونقاً وقبولاً .

(وهو مؤلف نقدي بلاغي ، وله تأليف في العـروض ، ولـه كتـاب (روضـة الأندلس ونزهة النفس) ، وكتاب (الوافي) مخطوط بالمكتبة التيمورية ، وله مؤلفات في علم الفرائض ، وكان متفنناً في معارف جليلة). [٤]

ثالثاً الأفكار الرئيسة في القصيدة :

اشتملت القصيدة من حيث الأفكار على معان عديدة هي :

---

[١] ينظر الأدب العربي في الأندلس س٣١٩

[٢] ينظر نفح الطيب للمقري ص ٤٨ ، وينظر في الأدب الأندلسي ص ٣٥٧

[٣] ينظر تاريخ الأدبي العربي د/ شوقي ضيف ص ٣٨٩

[٤] المرجع السابق ص ٣٨٩

١. القسم الأول في شكوى الدهر وغدره ، وضرب المثل بالدول التي سقطت ، والملوك الذين قتلوا أو فنوا رغم سطوتهم وسعة ملكهم ، ثم خلص من ذلك إلى عظم الفجيعة في الأندلس وجسامة الخطب والفداحة في فقدها ، وهو أمر جلل يكبر عن العزاء ، ويستعصي على السلوان.

٢. القسم الثاني من القصيدة وهو صلب الموضوع ، حيث التحسر على المدن الجميلة العظيمة العزيزة التي سقطت ، وكانت تتلوا الواحدة منها الأخرى في السقوط ، وقد أجاد الشاعر في ذلك أيّما إجادة ، فذكر كل مدينة بأجمل صفاتها ، وأشهر معالمها ، فيبكيها جميعاً ، ويرثيها رثاءً ينتهي به إلى اليأس .

٣. القسم الثالث من القصيدة تجد فيه إظهار العاطفة الدينية ، وتجسيمها حتى تبدو المصيبة صارخة تعبر الوجوه ، وتعكر النفوس وتصم الآذان ، فالمساجد صارت كنائس ، وبكت المحاريب وشكت المنابر ، وتجد في هذا القسم من القصيدة استنفارا للمسلمين واستغاثة بهم ، وإثارة لحماسهم ، ثم يسخر من تقاعسهم ويوبخهم على ما هم عليه من فقدان الإحساس ، وعدم التأثّر لما يحصل لإخوانهم ثم هو يخاطب إنسانية المسلم ، ويصف القوم وما أصابهم من ذل بعد عز ، وعبودية بعد سيادة ، وحيرة بعد استقرار .

٤. وينهي قصيدته مخاطباً من كان في قلبه ذرة إيمان يسأله عن مدى تأثّر قلبه بهذا الخطب وذاك الهول .

المبحث الثانى
(مقدمة القصيدة)

١/ لكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نقصان ... فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ
٢/هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ
٣/ وهذه الدار لا تُبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
٤/ يمزق الدهر حتماً كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصانُ
٥/وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزنٍ والغمد غمدان
٦/ أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليل وتيجان
٧/ وأين ما شاده شداد في إرمٍ ... وأين ماساسه في الفرس ساسان
٨/ وأين ما حازه قارون من ذهبٍ ... وأين عاد وشداد وقحطان
٩/ أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكان القوم ما كانوا
١٠/وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلكٍ ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
١١/ دار الزمان على دارا وقاتله ... ولمّ كسرى فما آواه إيوان
١٢/كأنما الصعب لم يسهل له سببٌ ... يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
١٣/فجائع الدهر أنواع منوعةٌ ... وللزمان مسرات وأحزان
١٤/ وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان

تتألف مقدمة تلك القصيدة من أربعة عشر بيتاً ، بدأها الشاعر بمقدمة تأملية ، وتوجيه ينص على أن الفناء يطول كل شيء ، وليس قاصراً على بلاد الأندلس ، وهذا من باب التسلية وإرساءا للواقع .

ويعتمد الرندي في هذه المقدمة على عنصر المقابلة كعادته وأترابه من الشعراء ولا سيما شعراء الرثاء خاصة ، فتراه يقرر حقيقة النقص بعد الكمال ، ويذكر المعنى وما يقابله من أمثال البقاء والفناء ، والسرور والحزن .... الخ ، كما يستحضر عبرة الحياة ، فيتذكر أن كل شيء يئول إلى الأفول والذبول ، ويحذر الناس من الاغترار بطيب العيش ورغد الحياة ، لأن دوام الحال من المحال ، ثم أخذ يضرب نماذج معينة تدل على هذا الموضوع فقال :

١- لكل شيء إذا مـا تـمّ نقـصان فـلا يُغـرّ بطيـب العـيش إنـسان

بدأ حديثة بتلك اللوعة الصادقة ، والتوجع نلاحظ ذلك في بـدء الـنص بالحكمـة العامة التي تفيد أن كل شيء يسير نحو الاكتمال والتمام له دور معين ، وزمن محدد ، فهذا الشيء يسير نحو الاكتمال والتمام ثم لا يلبث بعد فترة – تطول أو تقصر – إلـى النقصان والذبول فالقمر مثلاً يكتمل بدراً ، ثم يتـضاءل ويتنـاقص ، كـذلك عمـر الإنسان فالمرء يولد طفلاً ، ثم يصير شاباً ، ثم كهلاً ، فهرماً ، ثم ينتهي دوره فـي الحياة ، فهذه حكمة الله في خلقه ، وتلك الحكمة ليست في حياة الفـرد أو الجماعـات فحسب ، ولكنها في حياة البلاد والشعوب أيضاً ومن هنا فعلى الإنسان أن يأخذ حـذره ولا يغتر بالحياة والعيش الطيب فإن الشيء لا يدوم على حال واحدة ، بل هو سائر إلى نقيض ماهو عليه .

وأول ما يبدأ به البيت هو لفظ العموم (لكل) الذي يفيد شمول الخبـر ، وإتيانـه على الجميع بلا استثناء ، وانظر إلى إضافته إلى لفظ (شيء) الواقع نكره ، فـالعموم فى البيت دل عليه لفظ "كل" ، ثم تجد الطباق بين (تم ونقصان) وهو من المحـسنات البديعية التي لها أثرها في توضيح المعنى وإظهار الغامض ، وقديماً قالوا (وبـضدها تتميز الأشياء) وفي البيت الجملة الاعتراضية – إذا ما تم – حيث تكون الفجيعة أكبر، والخطب جلل (والجملة المعترضة تكون بين شيئين متلازمين لإفـادة الكـلام تقويـة وتأكيداً وتحسيناً) . (١)

ثم جاءت الشطرة الثانية مرتبطة بالأولى ومتممة لها فحيث كان ذلك كذلك فلا يغر بطيب العيش إنسان .

وتجد في الشطرة الثانية تقديماً للمتعلق – بطيب العيش – على نائـب الفاعـل – إنسان – وذلك للاهتمام به وللرمز إلى أن بلاد الأندلس كانت تتميز بطيـب العـيش ، بجانب ما في ذلك من المحافظة على السجع .

٢- هي الأمـور كمـا شـاهدتها دول مـن سـره زمـن سـاءته أزمـان

حيث يخاطب السامع بأن الأمور كما شاهدها وعاصرها دول متعاقبة ومتواليـة، وهو يلخص لنا تجربته التي أدركها من خلال حياته وتجاربه ، فـأمور الحيـاة كمـا

---

(١) ينظر مغني اللبيب لابن هشام ص ٢١

نشاهدها ونعايشها متغيرة غير ثابتة ، فقد يشعر الإنسان بالفرح والسرور يوماً ولكنه سرعان ما ينقلب حاله إلى حزن أياماً عديدة ، وهذه سنة الله في خلقه .

وفي البيت اقتباس [١] من القرآن الكريم ، وذلك من قوله تعالى :(وتلك الأيام نداولها بين الناس) . [٢]

وانظر إلى أسلوب القصر ، وطريقه تعريف الطرفين في قوله (هي الأمور) وذلك لإفادة أن هذا الشيء دائم مستمر قاصر على ذلك .

(ويعد القصر من أساليب التوكيد الشائعة في القرآن العظيم وفي فصيح كلام العرب ، وله أهمية كبرى في توكيد المعنى وتقريره) . [٣]

يقول : إنني أرشدك إلى شيء أنت تعلمه ، ولكنك كالغافل عنه ، وقوله

(دول) من المداولة وتفيد التغير وعدم الثبات.

ثم تأتي الشطرة الثانية : (من سره زمن ساءته أزمان) .

انظر إلى أسلوب الشرط ، وكون الكلام مترتباً على بعضه كأنه مشروط وملتزم بهذه القاعدة .

وانظر إلى الاعتراض – كما شاهدتها – وما ينبئ عنه من أن الأمر المذكور وهو مداولة الأيام بين الناس أمر شائع معروف مشاهد عياناً .

وبين (سرّ) و (ساء) طباق .

و أفرد زمن فى قوله : " سره زمن" ، وجمعه فى قوله :"ساءته أزماناً" ، وذلك كأنه يريد أن يقول :إن أيام الحزن أكثر من أيام الفرح ، فحيث جاءت المسرة فى يوم ، أتت الإساءة فى أيام ، وهذا كله يتلاءم مع عاطفة الحزن المسيطرة على الشاعر آنذاك.

وهناك المجاز العقلى فى قوله :"سره زمن" ، "ساءته أزمان" حيث أسند الفعل إلى الزمن فالعلاقة الزمانية .

---

[١] الاقتباس : هو أن يضمن الكلام شيئا من القرآن الكريم أو الحديث لا على أنه منه ينظر تلخيص المفتاح، ص ٢١٧.

[٢] سورة آل عمران آيه ١٤٠.

[٣] ينظر من أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم د/ محمود عبد العظيم صفار ص ١١٨.

ولذا فإن العدول فى الإسناد الحقيقى إلى الإسناد المجازى صورة بديعة من صور التوسع فى اللغة ، فهو يخيل إليك أن الحدث وقع من غير فاعله ، ويبين لك أن الحدث بلغ من الشمول و الإفاضة حداً جعله يتجاوز فاعله الحقيقى حتى عم الزمان ، كما يلحظ أيضاً فى المجاز العقلى الإيجاز فى القول .

ولذا قال عنه الإمام عبد القاهر الجرجانى -رحمه الله- : "وهذا الضرب من المجاز كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المُفلّق ، و الكاتب البليغ فى الإبداع و الإحسان والاتساع فى طريق البيان "[١].

(وكل ذلك الكم من أنواع البديع زاد الكلام حسنا وبهاء وجعل له القبول والاستحسان). [٢]

ونأتي للبيت الثالث :

٣- وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

تبدو في البيت النظرة القرآنية للحياة ، بأنها لا تدوم لأحد ولا يخلد فيها مخلوق، ولا تستمر على حال ، وإنما هي دار متغيرة متقلبة ، قال تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) . [٣]

وانظر إلى اسم الإشارة (هذه) التي تشير إلى الدنيا ، والغرض من اسم الإشارة (التحقير) فهذه الدار حقيرة لا يجب أن يتعلق بها أحد .

وفي قوله (لا تبقي على أحد) كناية عن صفة ، وهي الزوال والانتهاء .

(والكناية عن صفة أكثر أنواع الكناية شيوعاً في كلام البلغاء والأدباء والكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الحقيقي، ولها أهمية في علم البلاغة ...[٤] وانظر إلى لفظ (أحد) وتلك نكرة تفيد العموم والشمول ، وأيضاً فإن جملة (ولا يدوم على حال لها شان) كناية عن الذهاب والتغير والتبدل ، وصدق القائل :

---

[١] دلائل الإعجاز ص ١٧٠ .

[٢] ينظر دراسات في البلاغة العربية د/ عبد العاطي غريب ص ١٦٢

[٣] سورة الرحمن آية ٢٦، ٢٧

[٤] ينظر مختصر تلخيص المفتاح ص١٦٦ ونظرات في البيان د/ محمد عبد الرحمن الكردي ص٢٧٢

فلا حزن يدوم ولا سرور – ولا بأس عليك ولا رخاء

ولفظ (شان) أصلها (شأن) حففت للتسهيل [١]ولمراعاة السجع .

٤- يمزق الدهر حتماً كل سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان

بعد المقدمة التأملية يلتفت الرندي إلى أحداث التاريخ ، ليستلهم منها العظة والعبرة ، وأن ما حدث في بلاد الأندلس ليس جديداً وإنما سبقوا إليه في الزمان الغابر .

وانظر إلى التعبير بالفعل المضارع (يمزّق) حيث يفيد التجدد والحدوث وفي إسناد الفعل إلى (الدهر) مجاز عقلى علاقته الزمانية ومن الممكن كون حوادث الدهر ونوائبه سبباً في هذا التمزق فتكون العلاقة السببية .

(ويجوز أن في الكلام استعارة مكنية ، حيث شبه الدهر بإنسان يمزق ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو التمزيق) . [٢]

ولفظ (كل) في قوله (كل سابغة) يدل على العموم والشمول والإحاطة ، لأن "كل" عند إضافتها للنكرة تكون مؤسسة للعموم ، ومعنى وقوعها تأسيساً أنها هى التى تفيد الشمول وتؤسسه ، فهو لا يفاد أصلاً إلا بها ، كما هو الحال هنا .

أما إذا استعملت "كل" مع المعرفة فإنها تكون مؤكدة للعموم ، ومعنى وقوعها تأكيداً أن الشمول مفاد بدونها ، فهى تأتى لتوكيده ، ودفع توهم غيره .

و(سابغة) هي الدروع السابغات التي تقي من الحرب ، قال تعالى : (أن اعمل سابغات) [٣]، ورغم أنها سابغات تتميز بالقوة إلا أنها تمزق ، والفعل نفسه (يمزق الدهر) يدل على القوة والجبروت التي لا يقف في وجهها شيء و (مشرفيات) صفة للسيوف البتارة القاطعة ، يقول امرؤ القيس :

أيقتلني و المشرفي مضاجعي ...

---

[١] لمعرفة أهمية التسهيل في اللغة ينظر الدرر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير لأبي محمد عبد الوهاب محمد المالقي ص ٣٣٢

[٢] البلاغة العربية د/ محمد ربيع ص ٦٤

[٣] سورة سبأ آيه ١١

فهو ينكر تعرضه للقتل مادام محصّناً بتلك المشرفيات .

٥- وينتضي كل سيف للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدان

الفعل المضارع (ينتضي) يدل على التجدد والحدوث ، ولفظ كل للعموم والشمول، يقول: حتى ابن ذي يزن وسيفه وغمده تنطبق عليه قاعدة الفناء والانتهاء.

ثم يشرع في ذكر الأمثلة والنماذج ، فيشير إلى بعض الأمم الخالية ، والملوك الغابرين أصحاب الجاه والسلطان ، الذين دار عليهم الزمان ، وأدركهم قضاء الله الذي لا راد لقضائه ، فذهبوا واندثروا دون أن ينفعهم مالهم أو جاههم أو يغني عنهم سلطانهم من الله شيئاً فيقول :

٦- أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

تجد الرندي يميل غالباً في هذه القصيدة إلى الأساليب الاستفهامية وهي متلائمة مع السياق العام والغرض المقصود .

فهو يتحدث عن ملوك اليمن الذين كان لهم سطوة ومكانة ومهابة لا تنكر ، ولكن كل ذلك ضاع وانتهي ، فلم يبق ملكهم ولا تيجانهم وذهب كل ذلك .

والاستفهام في (أين) مجازي مقصود منه التعجب والعظة والتأسي ، كما تجد فيه سلوة للشاعر عن فقدان بلاد الأندلس و (التيجان) جمع تاج ، وهو ما يوضع على الرأس فخامة ومهابة لمن يلبسه .

وخص بلاد اليمن بالذكر ؛ لأن ملوكها عرفوا واشتهروا بالقوة مثل مملكة (سبأ) و (حمير) و (إرم) .

ثم كرر السؤال ثانية فقال (وأين منهم أكاليل وتيجان) للدلالة على أنه كما فنى الأشخاص وهم الملوك ، فكذلك فنيت المماليك .

٧- وأين ما شاده شداد في إرم وأين ماساسه في الفرس ساسان

إرم:(جد عاد،وقيل:إرم هي مدينتهم وأرضهم،وقيل: إرم: بمعنى هلك).[1]

والمعنى الأول هو كونها بمعنى جد عاد هو الأقرب للقبول وشداد هذا كان رأس القبيلة وعقلها المدبر ، كما أن (ساسان) هو قائد الفرس .

---

[1] الدرر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ٣٨٧/٦

فقد انتقل الشاعر من الحديث عن ملوك اليمن إلى الحديث عن قوم إرم ، وإلى ما شيّده ملوك الفرس وغيرهم .

وانظر كيف تتوالى الاستفهامات لتفيد تقرير الحقيقة الواقعة وهي الفناء للجميع فلا شيء يبقى لا أشخاص ولا ممالك ولفظ (شاد) من التشييد والبناء ، وهي تدل على القوة والمتانة والعظمة .

(وفي ألفاظ شاده ، شداد ، تكرار حرف الشين دليل القوة من تلك الأمم ، كما أن في تكرار حرف السين في (ساسه) ساسان شد لانتباه السامعين إلى أخذ العبرة لما حل بتلك الأمم السالفة الذكر) . [١]

وهناك الجناس المشتق فى "شاده شداد" ، و "ساسه ساسان" .

٨- وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان

يسأل الشاعر عن مصير مُلك قارون ، وهل نفعه هذا الملك من ذهب وكنوز قال فيها القرآن العظيم: (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحة لتنوء بالعصبة أولى القوة). [٢]

ثم ينتقل الشاعر انتقاله سريعة فيسأل عن مصير عاد وشداد وقحطان ، وهي قبائل مشهورة بالقوة والصلابة .

وأخيراً يجيب الرندي على تلك الأسئلة فيقول :

٩- أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

يقول : ذهبت تلك الحضارات كلها ، ولحق بهؤلاء الملوك الموت والفناء .

ولفظ (أتى) يفيد أن الأمر حتمي مقدر ، ولا مفر منه و (أمر) المقصود به الموت والانتهاء.

وفى قوله:"أتى على الكل أمر" استعارة مكنية ، حيث شبه الأمر والمراد منه الموت ، شبهه بمخلوق عملاق له مجئ ثم حذف المشبه ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله:"أتى" على طريق الاستعارة المكنية .

---

[١] شرح الفريدة الجامعة للمعاني الرائعة للزبيدي ص ٦٨

[٢] سورة القصص ٧٦

وانظر إلى تقديم قوله (على الكل) للاهتمام بالعموم والشمول المفاد من اللفظ وقوله: (لا مرد له) صفة لأمر تفيد توكيد الغرض المسوق له الكلام ، وهو أن هذا الأمر حتم مقضى، ولا يرده شيء لا جاه ولا سلطان .

و(حتى) غائية تفيد الانتهاء ولفظ (قضوا) تفيد الانتهاء أيضاً وجملة

(فكأن القوم ما كانوا) تفيد توكيد انقضاء أمرهم ، حتى أصبحوا قصصاً وعبرة لا وجود لهم على الأرض .

وحرف التشبيه (كأن) يفيد التوكيد والتثبيت ، فهي أقوى وأبلغ من الكاف ، لأنها مركبة من "الكاف" و"أنّ" التى تفيد التوكيد ، فهو يقول : إن أمر هؤلاء قد انتهى وأصبحوا كأن لم يكونوا .

١٠- وصارماً كان من مُلك ومن مَلك كما حكى عن خيال الطيف وسنان

هنا يلجأ الرندي للتشبيه ، فيشبه هؤلاء الملوك ، ويشبه أملاكهم بأنها كانت أشبه بحلم قصير .

وتجد الجناس المحرف بين (مُلك و مَلك) كما تجد التشبيه في قوله (كما حكى...) كل ذلك أضفى على الكلام رونقاً وبهاء وجمالا واستحساناً لدى السامعين، وقبولاً عند المتلقين.

وخيال الطيف : حلم النائم .

والوسنان : النائم نوماً خفيفاً قصيراً ، وهو الذي أخذته سِنة من النوم ، وفي هذا ما فيه من دلالة على أن أمر الحياة ونعيمها ، ما هو إلا كحلم وسنان ، سرعان ما أفاق منه بسرعة .

١١- دار الزمان على دارا وقاتله وأمّ كسرى فما أواه إيوان

من العيوب التي وجهت للقصيدة أن الشاعر بعد انتهائه من قوله : أتى على الكل أمر ... شرع في ذكر وضرب أمثلة جديدة ، وكان الأفضل هو الحديث عن دارا قبل تقرير الحكم وشموله لمن سبق وهو قوله (أتى على الكل) حتى يدخل (دارا) في هذا الحكم وبين (دار) و (دارا) وقوله : آواه ،وإيوان (جناس و(دارا) هو ملك الروم يقول : إن الدهر والزمان أفنى القاتل والمقتول .

و (أمّ) بمعنى قصد ، وكل ذلك إسناد مجازي وكسرى هو ملك الفرس ، يقول: إن الموت والقضاء الحتمي عندما جاء إلى كسرى لم يحمه إيوانه ، وهذا مصداقاً لقوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة). [١]

١٢- كأنما الصعب لم يسهل له سبب يوماً ولا ملك الدنيا سليمان

أي أنه مهما كان للإنسان من عزة وقوة ومنعة ، فإن ذلك لا يدفع عنه الأجل ولا يرد عنه القضاء .

يقول : حتى سيدنا سليمان عليه السلام الذي دانت وخضعت له الدنيا بإذن الله ، أتاه أمر الله .

ويلحظ الطباق بين (الصعب ، يسهل مما زاد الكلام وضوحاً وتأكيداً ومنحه رونقاً وجمالاً). [٢]

١٣- فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

فجائع : جمع فجيعة ، وهي تدل على الإيلام والقبح ، والشاعر يمهد لما حدث في بلاد الأندلس ، وإضافة (فجائع) إلى (الدهر) من إضافة الشيء إلى زمنه أو إلى سببه.

وبين (أنواع) و (منوعة) (جناس) ، وبين (مسرات) و (أحزان) طباق ، ويشير بقوله (أنواع منوعة) إلى تعديد المصائب من

مرض وفقر ... الخ .

يقول : إن ما يحدث للإنسان في حياته ليس كله سرور وليس كله حزن ، وإنما يجمع بين هذا وذاك .

١٤- وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حل بالإسلام سلوان

يقول : إن الكوارث والفجائع والمصائب لها نسيان ، ومجريات الحياة ومتطلبات المعيشة تسهل تلك الحوادث وتنسيها ، وبين (سلوان ، وما سلوان) طباق بالسلب .

---

[١] سورة النساء آيه ٧٨

[٢] ينظر جواهر البلاغة ص ٣٩٠ للهاشمي

يريد أن يقول : إن كل كارثة لها ما يخفف وطأتها ، ويهون من مصيبتها إلا ما حلّ ببلاد الإسلام في الأندلس ، فقد استعصت تلك المصيبة ، وهذا الحادث الجلل عن كل ما من شأنه أن يهوّن أو يقلل من تلك المصيبة .

وفي قوله (بالإسلام) كأنه يعلل لهول الكارثة فإن المصيبة إذا كانت في الدين فهي الطامة الكبرى التي لا تعادلها مصيبة أخرى .

وهكذا تجد مقدمة القصيدة المشتملة على أربعة عشر بيتاً ، تناول فيها الشاعر غدر الزمان وتقلبات الأيام ، وضرب الأمثلة بمن كان من قبل من ملوك وممالك ، لها شأن عظيم ومهابة ومنعة ومع ذلك حلّ بها ما حل من تدهور وانهيار ، وانقضى أمرها والشاعر عندما يذكر هذه المقدمة يجعلها تمهيدا للحديث عما حدث في الأندلس وقد لمسنا من خلال كل ذلك لوعة صادقة في التعبير ، ومشاعر جياشة يملؤها الحزن العميق والحسرة والندم وخاصة أن المصيبة طالت العقيدة المقدسة ، فكان الخطب جلل والطامة كبرى ، والفجيعة فوق أن تحتمل .

ويلحظ في تلك المقدمة أنها كانت مليئة بالمحسنات البديعية وخاصة الطباق والجناس ، وتجد فيها صورا بيانية رائعة معبرة أضفت على الكلام رونقاً وبهاء وجمالاً ، وجعلت له تأثيراً واضحاً لدى المتلقين .

المبحث الثالث
(رثاء المدن الزائلة)

١٥/ دهى الجزيرة أمر لا عـزاء لـه هـوى لـه أحـد وانهـدّ ثهـلان
١٦/ أصابها العين في الإسلام فارتزأت حتى خلـت منـه أقطـار وبلـدان
١٧/ فاسأل بلنـسية ماشـأن مرسـية وأيـن شـاطبة أم أيـن جبـان
١٨/ وأين قرطبـة دار العلـوم فكـم من عالم قد سـما فيهـا لـه شـان
١٩/ وأين حمص وما تحويه من نـزه ونهرهـا العـذب فيـاض ومـلآن
٢٠/قواعـدكن أركـان الـبلاد فمـا عسى البقـاء إذا لـم تبـق أركـان
٢١/ تبكي الحنيفية البيضاء من أسـف كما بكـى لفـراق الإلـف هيمـان
٢٢/على ديـار مـن الإسـلام خاليـة قد أقفـرت ولهـا بـالكفر عمـران
٢٣/حيث المساجد قد أضحت كنائس ما فـيهن إلا نـواقيس وصـلبان
٢٤/حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ حتى المنابر ترثـى وهـي عيـدان
٢٥/ ياغافلاً وله في الـدهر موعظـة إن كنت في سِـنة فالـدهر يقظـان
٢٦/ وماشياً مرحـاً يلهيـه موطنـه أبعد حمص تغـر المـرء أوطـان
٢٧/ تلك المصيبة أنست مـا تقـدمها ومالها مـع طـول الـدهر نـسيان

في هذا المبحث أتناول حديث الشاعر عن الموضوع الأصلي والغرض المنشود من تلك القصيدة .

فالشاعر يتحدث عن رثاء المدن الأندلسية التي سقطت في يد الصليبيين ، وتبدل حال تلك المدن من عز إلى ذل ، ومن إسلام إلى كفر ، وتبدل حال حكامها من أسياد إلى عبيد ... الخ ما حدث في تلك البلاد من نكبات ، تناولها الشاعر في تلك الأبيات المعبرة الصادقة .

يقول :

١٥- دهـى الجزيـرة أمـر لامردلـه هـوى لـه أحـد وانهـد ثهـلان

يخبرنا الشاعر أن فاجعة أتت على بلاد الأندلس ، وأصابتها في مقتل وانظر إلى الفعل(دهى) من الداهية ، وهي الفاجعة والطامة الكبرى .

وقوله : (الجزيرة) هذا الكلام أتى على سبيل المجاز ، وليس حقيقة لأن الأندلس شبه جزيرة وليست جزيرة بالمعنى الذي تحويه الكلمة والتنكير في (أمـرٌ) للتفخيم والتهويل فهو أمر جلل فوق طاقة البشر ، ولا يمكن تحمله.

وقوله (لا عزاء له) صفة لأمر ، فكيف يكون للمصيبة في الدين عزاء ؟!.

و (أحد) جبل قرب المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، و(ثهلان) جبل باليمن .

وإسناد الفعلين (هوى) ، و(انهد) إلى أحد و ثهلان مجاز ، وفيه أيضاً كناية عن شدة التأثر بتلك الفاجعة حيث طالت كل شيء حتى الجبال الرواسي ، وفيه أيضاً تعريض بأولئك الذين لم يتأثروا بتلك المصيبة ، فهم أقل من الجماد من جهة المشاعر والمشاركة الوجدانية ، ونلحظ

(التشخيص والتجسيد) حتى لكأنك أمام مخلوقات لها أحاسيس ومشاعر .

١٦- أصابها العين في الإسلام فارتزأت حتى خلت منه أقطار وبلدان

(العين) المقصود الحسد ، والضمير في (منه) يعود على الإسلام وقوله(ارتزأت) من الرزية وهي المصيبة والفاجعة .

والشاعر كأنه يسلي نفسه فينسب ما حل بتلك البلاد إلى الحسد وذلك لجمال الطبيعة فيها من ناحية ولأنها قطعة من أوروبا خضعت للإسلام فترة طويلة من ناحية أخرى .

وانظر إلى التجسيم في قوله :"خلت منه..." حيث جعل الإسلام كأنه أمر مجسم محسوس، خرج من تلك البلاد ، وخلت منه تلك الأوطان.

ولأن الأمر جلل ، و الخطب مهول اختار الشاعر كلمة "ارتزأت" ، فقد أحسن الشاعر في استخدام اللفظة و توجيهها لخدمة المعنى المراد .

١٧- فاسال بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

وفي إيقاع فعل الأمر "اسأل" على تلك المدن مجاز قصد منه التحسر والتفجع والندم ، فهو مجاز عقلي نسبته نسبة إيقاعية .

وانظر إلى اقتران الفعل بالفاء التي تدل على التعقيب فكأن العين فور إصابتها لتلك البلاد فارتزات فترتب على ذلك فناء تلك البلاد فاسأل هل من مجيب ؟ ! .

"وبلنسية ، مرسية ، شاطبة ، جبان" أسماء بلدان سقطت في يد الصليبين.

وتلك الاستفهامات المتتالية تدل على الحزن العميق ، حيث إن السائل يعلم الإجابة المخزية ، وهي سقوط تلك البلاد في يد الصليبيين .

١٨- وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

الشاعر يخص بعض المدن التي لها شأن ووضع مميز وسقطت مع ما سقط من البلدان فهو يتحدث هنا عن مدينة (قرطبة) (المشتهرة) بالعلوم وكانت موضع إجلال وتعظيم من الناس ، ولذا فقد وصفها بقوله : (دار العلوم) والاستفهام كسابقه المقصود منه التوجع والتحسر.

وتأتي "كم" الخبرية ، والمقصود منها "التكثير" ، ولذا فقد صحبتها(من) التي هي للاستغراق ، ثم انظر إلى (قد) التي تفيد التحقيق والتوكيد ، وسما : بمعنى ارتفع شأنه وعلا قدره ، وانظر إلى تنكير (عالم) والمقصود منه التكثير وأيضًا(التعظيم).

وعندما جاء بقوله : سما فيها له شان قدم (فيها) على (له) للاهتمام بأمر المقدم ، أي أن ارتفاع شأنه كان في تلك البلاد التي تغير حالها وتبدل من النقيض إلى النقيض .

و(شان) أصلها (شأن) خففت للتسهيل .

١٩- وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

حمص : هي مدينة أشبيليه – سميت – حمص – لأن القائد وجنوده الذين نزلوا بها كانوا من حمص السورية .

والاستفهام هنا أيضًا للتحسر والندم على فقدان تلك البلدة العظيمة التي اشتهرت بجمال طبيعتها الخلابة ، ومتنزهاتها وحدائقها الغناءة ورياضها الفتانة .

وانظر إلى اسم الموصول (وما تحويه) الدال على التفخيم والتكثير أيضاً وتنكير (نزه) لهذا الأمر أيضاً .

ثم وصف النهر بكونه (عذب) مع أنه مفهوم قبل الوصف ، وكذلك (فياض وملان) بمعنى واحد .

٢٠- قواعدكنّ أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تلك البلاد كانت قواعد، والقواعد إذا سقطت سقط المبنى فالكلام مبني على التشبيه، حيث شبهت تلك البلاد المذكورة بقواعد المبنى فلما زالت تلك القواعد تداعى المبنى وهبط ، ففي الكلام تشبيه بليغ أضفى على المعنى رقياً واستحسانا وقبولا .

٢١- تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

انظر إلى التعبير بالفعل المضارع (تبكي) الدال على التجدد فهذا الأمر الجلل لا ينسى ولا تمل الأشياء بكاءه .

وفي قوله :"تبكي الحنيفية ..." استعارة مكنية ، ووصفها بالبيضاء أي الشريفة غير الملوثة ، وقوله : من أسف هو سبب البكاء وفي الكلام تجسيد وتشخيص للحنيفية، ثم أظهر هذا المعقول في ثوب المحسوس فقال : كما بكى .... فقد شبه الحنيفية أي الشريعة والفطرة السليمة ، شبهها بإنسان يبكي ، وليس إنساناً عادياً وإنما هو هيمان تائه على رأسه فاقد للوعي من شدة تأثره بفقدان ألِيفه ، فهو متصابي فَقَد أقرب الناس إلى قلبه .

نعم إنها صورة حية معبرة مؤثرة في النفس أيما تأثير .

٢٢- على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران

قوله : على ديار فيه تضمين وهو (تعليق قافية البيت بصدر البيت الذي بعده).[1]

وهو عيب عند بعض النقاد ، فسبب بكائها ومحله أنه على ديار كان الإسلام يملؤها ثم خلت منه وتبدل حالها بالكفر .

وبين(الإسلام، وخالية) و(الكفر ، وعمران) مقابلة ، و (قد) حرف تحقيق أفاد توكيد الكلام وتثبيته .

---

[1] موسيقى الشعر العربي أوزانه وقوافيه ص ١٦١ د/ محمد عبد المنعم خفاجي

وأقفرت من قولهم (أرض قفر) أي معزولة لا إنسان فيها[1] فهي أرض معزولة مبغوضة غير محببة عند البشر وقوله : (ولها بالكفر عمران) صفة لديار ، وانظر ما أفادته هذه الصفة من زيادة الألم والفجيعة .

وفي الكلام تجسيد وتشخيص لا يخفى .

٢٣) حيث المساجد قد أضحت كنائس ما فيهن الا نواقيس وصلبان

حيث هي للمكان اتفاقا ، خلافا للأخفش حيث قال : وقد ترد حيث للزمان ، والغالب كونها في محل نصب على الظرفيه ، أو خفض بمن وقد تخفض بغيرها [٢] .

والشاعر ما زال يبكي ويتحسر على ما حدث في بلاد الأندلس ، من وجود للكفر ورموزه في تلك البلدان التي كان الإسلام يعمرها ، فقد تبدل حالها وأصبحت المساجد على يد الصليبيين كنائس .

وبين "المساجد" و" كنائس " مراعاة نظير ، و"قد" حرف تحقيق أفاد توكيد المعنى وتثبيته . وأسلوب القصر وطريقه النفي والاستثناء زاد من الحسرة والألم،على التحول والتبدل .

والفعل: "أضحت" يفيد سرعة حدوث ذلك التغير، فالأمر ما هو إلا عشية وضحاها.

٢٤) حتى المحاريب تبكي وهي جاحدة حتى المنابرترثي وهي عيدان

"حتى" حرف يقصد به الغاية ، فالأمر وصل إلى منتهاه وانظر إلى الفعل المضارع " تبكي " و" ترثي " والضمير في الأول للمحاريب وفي الثاني للمنابر وما يدل عليه المضارع من تجدد وحدوث كأنه يريد أن يقول : كلما حان وقت الأذان تبكي المحاريب وكلما حان وقت خطبة الجمعة تبكي المنابر . وانظر إلى الحال في قولة : "وهي جامدة " وتلك الحال للمحاريب .

وقولة : "وهي عيدان " أي لا تتحرك ، وتلك الحال للمنابر ، وما تنبيء عنه من أن الجماد تأثر لتلك الفجيعة وهذا الخطب الجلل ، وفيه ما فيه من تشخيص وتجسيم. وإسناد الفعل " تبكي " و" ترثي " إلى المحاريب والمنابر مجاز .

---

[1] ينظر لسان العرب لابن منظور ص ٦٠

[2] مغنى اللبيب ص ١٥

٢٥) يا غافلا وله في الدهر موعظـــة إن كنـــت فـــي ســـنة فالـــدهر يقظـــان

يوجه الشاعر نداءه إلى الإنسان الذي يشاهد كل ذلك ويسمع به ، ثم هو يغفل عنه ولا يعمل حسابا لغدر الزمن .

وهذا النداء "يا غافلا " ، والتنكير في "غافل " لإفادة العموم والـشمول لكـل مـن يتوهم أنه بعيد عن تلك المصائب ففيه ما فيه من تحذير وترهيب .

وقوله : "وله في الدهر موعظة" هذه الجملة كأنها توبيخ لهذا الذي يرى الحـوادث تقع أمامة ثم لا يأخذ العظة والعبرة منها .

وبين قولة :" سِنة ""ويقظان " طباق ، زاد المعنى وضوحاً . و" السِّنة " هي النـوم الخفيف القليل .

ووصف الدهر بقولة : " يقظان " وجعله خبرا له مجاز لغوى كنائى قـصد بـه التنبيه والعظة وأخذ الحيطة والحذر .

٢٦) وما شيا مرحـا يلهيـه موطنـه أبعـد حمـص تغـر المـرء أوطـان

" ما شيأ" معطوف على غافلاً ، فهوُ منادى أيضاً قصد منه التحذير والتخويف.

والمرح : شدة الفرح والانبساط ، والفعل المضارع " يلهيه " يدل علـى التجـدد والحدوث فهو مغرور بوطنه .

والاستفهام في " أبعد حمص " للإنكار والنفي، فهو ينكر أن يغتر أحـد بموطنـه لأنه لا يوجد بعد أشبيلية " حمص " وما تحويه من نزه وملاعب وحـدائق غنـاء ، لا يوجد مثيل لذلك ومع هذا فقد انتهى أمرها وأصبحت كأن لم تكن .

و الإنكار هنا موجه للظرف "بعد" ، لأن المراد إنكاره هو ما يلى الهمزة ، ولـيس الإنكار موجها للفعل "تغر" ، وهذا من الدقائق التى ذكرها الإمام عبد القاهر فى دلائـل الإعجاز ، حيث نبه على أن الشيء المراد إنكاره هو ما يلى الهمزة [1].

فالشاعر يستبعد أن يكون فى الكون موطناً يغر صاحبه بعد "حمص" ، لما تتمتع به هذه المدينة من جمال الطبيعة المبهرة التى لا تتوفر لغيرها .

---

(1) ينظر دلائل الإعجاز وينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى أ.د. محمد أبو موسى ص٣٤٩: ٣٥٠ .

٢٧) تلك المصيبة أنـسـت مـا تقـدمها وما لهـ

تلك: اسم إشارة ، فيه تجسيد وإبراز المعقول في صـ
المصيبة بأنها أنست ماتقدمها فيه ما فيه من تهويل لتلك المصي
قبلها بالنسبة لها كأنه لا شيء ، ففيه مبالغة في الحزن، ثم أكد أن
كانت لفضاعتها أنست ماتقدمها إلا أنه لاشيء ينسيها وستظل دائماً و
فجيعة وكارثة .

وانظر إلى الجملة الاعتراضية (مع طول الدهر) وهي تفيد تأبيد الحزن ودوامه واستمراره على هذا الأمر الجلل والمصاب الفادح .

"وما" في قوله: "وما لها" نافية تعمل عمل ليس عند الحجازيين إن تقدم الاسم ولم تسبق بإن ولا بمعمول الخبر إلا ظرفاً أو جاراً ومجروراً ولا يقترن خبرها بإلا [1].

وهكذا جاء هذا الجزء من القصيدة قاسياً على المتلقي ، كقسوة الحدث نفسه فقـد عبر الشاعر عما يريد من تعريض وإهانه ، ووصف لما حدث أبلغ تعبير ، وملأ حديثة بالصور البيانية المجسمة للواقع والمجسدة للحدث فتشعر كأنه واقع الآن ماثل أمامـك رغم مرور مئات السنين على وقوعه .

وقد أحسن الشاعر صنعًا عندما ساق تلك العبارات المؤثرة، ورسم الواقع المؤلم، فكان لذلك تأثيره على نفوس السامعين، فشاركوا الشاعر ألمه وحزنه، وعاشوا الحدث معه.

ويعد هذا الجزء من القصيدة بمثابة العمود الفقري بالنسبة للإنسان ، فهو الغرض المقصود ، وقد أدى المراد منه أتم تأدية في أوضح صورة ، وأرقى بيان .

---

[1] ينظر شرح قطر الندى وبل الصدى ص ١٣٩

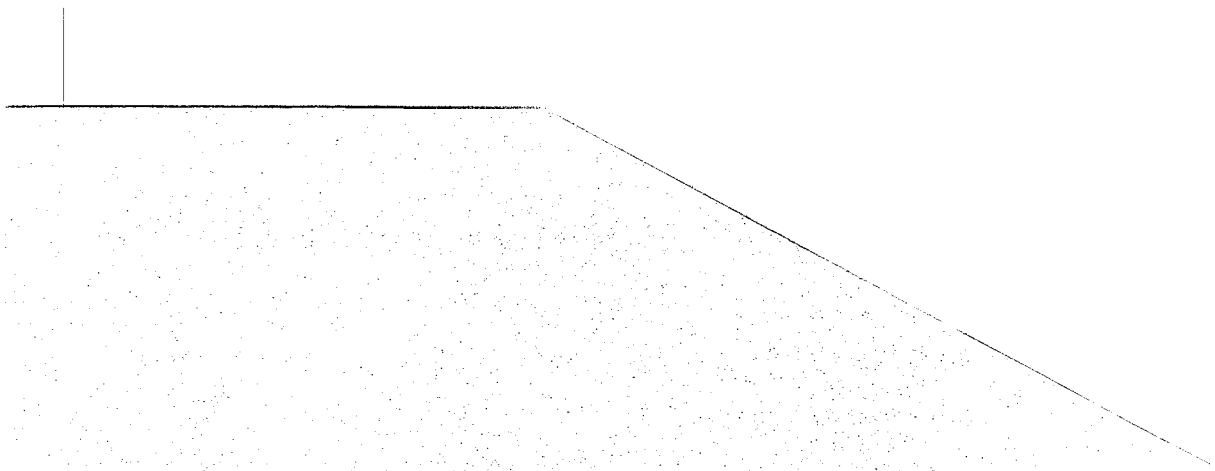

المبحث الرابع
(استغاثة وحسرة وألم)

٢٨/ يا أيها الملك البيضاء رايته ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
٢٩/ يا راكين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
٣٠/وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران
٣١/ وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
٣٢/ أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
٣٣/ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم ياعباد الله إخوان
٣٤/ كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
٣٥/ألا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان
٣٦/ يامن لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم جور وطغيان
٣٧/ بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الضد عبدان
٣٨/فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
٣٩/ ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
٤٠/ يارب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
٤١/ وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
٤٢/ يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
٤٣/ لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

في هذا الجزء من القصيدة الذي يمتد من البيت الثامن والعشرون ، وحتى نهاية القصيدة تجد فيه استغاثة من الشاعر لنجدة المنكوبين في بلاد الأندلس ، ونصرة إخوانهم ، وتجده يظهر العاطفة الدينية ، ويجسدها ، ويستنفر المسلمين ،. ويخاطب إنسانية المسلم ، ويبرز ما أصاب أهل الأندلس من ذل بعد عز ومن إهانة بعد كرم ، ومن عبودية بعد السيادة..... وغير ذلك مما يجب أن يحرك مشاعر المسلمين

هذا الجزء مرتبط بالذي قبلة وتجد فيه حسن تخلص ، حيث إنه بعد أن ذكر تأثر الجماد كالمحاريب والمنابر بكارثة الأندلس ، هو الآن يريد أن يرى أثر ذلك على

الإنسان المسلم ، وينتهي به المطاف إلى اليأس حتى من مجرد المشاركة الوجدانية من المسلمين.

٢٨) يا أيها الملك البيضاء رايته أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

النداء هنا للاستغاثة، ووصف الراية بالبيضاء دلالة على العزة والانتصار والمنعة، فهي راية بيضاء قبل دخول المعركة ، ولكنها تتلطخ بدم الأعداء فتصير حمراء بعد نهاية القتال ، كما قال عمرو بن كلثوم :

بأنا نورد الرايات بيضا :: ونصدرهن حمرا قد روينا

وقوله : " أدرك بسيفك " فيه دلالة على أن هذا الأمر لن يحسمه سوى القتال ، فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ، ولا يفري الحديد إلا الحديد.

وانظر إلى هذا الدعاء " لا كانوا " على أهل الشرك بالانتهاء والفناء ، فهو أسلوب إنشائي أفاد مدى الغضب المسيطر على الشاعر آنذاك.

وانظر إلى الإضافة في " أهل الكفر " وما تحويه من دلالة على المجاز المقصود من تجسيم للكفر حتى صار له أهل و أعوانَ وأنصار ، كأنه يقول: فأين أهل الإيمان إذاً ؟؟!!.

٢٩) يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان

الشاعر بدأ حديثة بتوجيه الاستغاثة وذلك بنداء الفرسان العرب ، ويثير فيهم عاطفة النخوة والنجدة للدفاع عن تلك البلاد المنكوبة ، وإنقاذ أهلها الذين صاروا ضحية وفريسة للصليبين .

وقوله: " يا راكبين " إنشاء طلبي، ونوعه نداء، والغرض منه الاستغاثة، وطلب النجدة للدفاع عن الأندلس ، "والاستغاثة أحد أساليب النداء لا يتحقق الغرض منه إلا بتحقق أركانه الثلاثة وهي حرف النداء والمستغاث به ، والمستغاث لأجله " [١]

وانظر إلى المنادى ، وهو شبيه بالمضاف " راكبين " وما يوحي به هذا الجمع من كثرة عدد الفرسان المسلمين .

---

[١] النحو الوافي أ / عباس حسن ص ٧٧

وقولة : " عتاق الخيل " والمقصود الخيول العربية الأصيلة،"وضامرة " صفة تعني النحيفة ، فضمور البطن يدل على النحافة والخفة ، فهذه الخيول سريعة ونحيفة ، وهو وصف بجودة تلك الخيول .

وقولة: "كأنها في مجال السبق عقبان" كأن أداه تشبيه، وهي أقوى من الكاف، ورأى الجمهور أنها للتشبية مطلقاً ، خلافاً للآراء الأخرى كرأي الكوفيين والزجاج ، والتفتازاني ". (١)

والمشبه الضمير العائد على الخيل الضامرة ، والمشبه به " العقبان " وهو طائر مشهور عنه السرعة والانقضاض ، وهذا التشبيه " المجمل " المرسل " أفاد ذكر محاسن تلك الخيول ، والجملة المعترضة – في مجال السبق، أفادت ما تميزت به هذه الخيول ، وأنها مدربة على السبق ، والنضال ، وكل ذلك تشجيعا لهم على الإقدام والانتصار لإخوانهم في الأندلس .

٣٠) وحاملين سيوف الهند مرهقة كأنها في ظلام النقع نيران

هذا وصف آخر للفرسان العرب ، فهم " حاملين " فهو يناديهم ، وحذف حرف النداء اكتفاء بذكره في البيت السابق، وهذا المنادى " الشبيه بالمضاف " المقصود منه أيضا الاستغاثة بهم ، وهو يدل على الكثرة فهو جمع مذكر سالم .

و سيوف الهند " مشهورة بقوتها وصلابتها ، ولذلك اختارها الشاعر.

" مرهقة " صفة لتلك السيوف يوحي بأنها بتارة قاطعة ،وانظر إلى التشبيه في قولة :

" كأنها في ظلام النقع نيران " ، فالمشبه : الضمير العائد على سيوف الهند ، وأداة التشبيه " كأن " ، والمشبه به " نيران " ، وهذا التشبيه المرسل المجمل ، أفاد أن تلك السيوف من شدة حدتها تضيء كالنار وأيضا تحرق الأعداء كالنيران فتميتهم.

والنقع : أي الحرب والمقصود بقوله " ظلام النقع" هو الغبار المتصاعد وسط المعركة أثناء القتال بسبب كثرة الحركة وآثار الخيل وما تثيره من رمال وغيرة ، وهذا المعنى قد أشار إليه بشار بن برد في قوله :

---

(١) ينظر المطول ج ٤ ص ٨٠

كأن مثار النقع فوق رءوسنا : وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه [١]

٣١) وراتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان

بعد أن ذكر محاسن هؤلاء الفرسان ، وذكر مجال الخيل وهو السباق ، ثم ذكر مجال السيوف ، وهو الحرب والقتال شرع في صفة أخرى لمن يستغيث بهم .

" وراتعين " أي مقيمين باستمتاع واستجمام .

" وراء البحر " يقصد بحر الزقاق ، أي وراء مضيق جبل طارق وقوله:" في دعة" أي في رفاهية،والضمير في " لهم " عائد على الفرسان ، واللام تفيد التملك والسيطرة ، والباء في " بأوطانهم " للملابسة ، أي حال كونهم بأوطانهم .

وقوله: " عز وسلطان " العز : المجد والرفعة والجاه ، والسلطان أي الحكم والأمر ، وقدم الخبر وهو شبه جملة " لهم " على المبتدأ للاهتمام به وللتنبيه على أنه خبر وليس صفة والغرض البلاغي من هذا الخبر المدح والثناء والحث والتحضيض .

٣٢) أ عندكم نبأ من أهل أندلس :: فقد سرى بحديث القوم ركبان

بدأ الشاعر كلامه بهذا الإنشاء الطلبي " الاستفهام " ، والغرض منه الإنكار، وانظر كيف قدم الخبر وهو شبة جملة " عند كم " وذلك لأن المقدم هو محط الإنكار والتعجب ، وكذلك للاهتمام .

والنبأ : الخبر ، و"من" حرف جر بمعنى عن " وهو من الاستعارة التبعية في الحروف . " "والاستعارة في الحروف تكون في متعلقات معانيها والسكاكي وضح ذلك فقال : متعلقات معاني الحروف وما يعبر عنها عند تفسيرها " [٢]

و" قد " حرف تحقيق يدل على توكيد وقوع الفعل ، وقدم الشاعر المتعلق " بحديث القوم " حيث إن أصل الكلام : " سرى ركبان بحديث القوم " ، وهذا التقديم لمراعاة النظم الشعري ، وكذلك للأهمية .

٣٣) كم يستغيث بنو المستضعفين وهم أسرى وقتلى فما يهتز إنسان

يستغيث : يطلب العون والنجدة ، وهم في أمسّ الحاجة إلى ذلك .

---

[١] ديوان بشار بن برد ص ٢٧٣

[٢] ينظر مفتاح العلوم ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

المستضعفين : يقصد بهم أهل الأندلس .

وأسرى : جميع أسير أي عند أعدائهم ، ويهتز : أي يتأثر .

يخبرنا الشاعر بكثرة استغاثة أبناء الأندلس صغاراً وكباراً ، رجالاً ونساء ، بإخوانهم المسلمين المجاهدين ليدافعوا عنهم وعن أرضهم ودينهم أثناء غزو الأسبان وأعوانهم ، حيث أكثروا فيهم السبي والأسر ، والقتل ، وخربوا ديارهم ، وقد كثرت استغاثة أهل الأندلس طالبين العون والنجدة فلم يتأثر أحد من المسلمين ليدافع عنهم .

وكم " خبرية الغرض منها التكثير .

و" بنو المستضعفين " كناية عن أهل الأندلس ، وانظر إلى جملة الحال " وهم أسرى وقتلى " وما توحي به مما وصل إليه حال هؤلاء .

وأسلوب النفي " فما يهتز إنسان " تشعر فيه الاشمئزاز من تقاعس هؤلاء المسلمين في الدفاع عن إخوانهم .

والتنكير في " إنسان " أفاد العموم والشمول.

وقوله: "فما يهتز إنسان" كنايه عن صفة[1]، وهي عدم تأثر المسلمين لما حل بإخوانهم في بلاد الأندلس.

٣٤) ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم ياعباد الله إخوان

التقاطع : معناه الهجران .

يخاطب الشاعر المسلمين من أهل إفريقيا وبلاد المشرق العربي متسائلا عن سبب الهجران والقطيعة والخصام بينهم وبين إخوانهم المسلمين من أهل الأندلس مع أنهم جميعاً ينتمون إلى دين واحد هو الإسلام ، فهم جميعاً إخوة برابطة أقوى من رابطة الدم والنسب ألا وهي رابطة الدين والعقيدة ، فكيف يتقاعس الأخ عن نصرة أخية في ساعة الشدة والحاجة .

والبيت يبدأ بهذا الإنشاء الطلبي" الاستفهام " وغرضة البلاغي الإنكار.

وقوله : "يا عباد الله " نداء الغرض منه التعجب ، وهو جملة اعتراضيه ، الغرض منها التذكير بانتماء الجميع إلى دين واحد.

---

[1] ينظر جواهر البلاغة ص ٣٧١

وجملة " أنتم ..... إخوان" جملة اسمية ، فيها إيحاء بأهمية دور الأخ في المساعدة وقت الشدة .

٣٥) ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان

ألا : استفتاحية ، الغرض منها التنبيه .

نفوس : جمع نفس ، لفظ جمع يدل على الكثرة ، ونفوس : مجاز مرسل حيث أطلق النفوس ، وأرادبها الفرسان المسلمين والعلاقة " الجزئية " .

أبيّات : صفة لنفوس أي تأبي الظلم والضيم والاضطهاد ، وهمم : جمع همة ، ومعناها الإرادة القوية والعزيمة الصادقة فالشاعر يخاطب جميع المسلمين في إفريقيا وبلاد المشرق العربي باحثاً عن أصحاب النفوس التي تأبي الظلم والاضطهاد والذلة والهوان لإخوانهم المسلمين من أهل الأندلس .

هذه النفوس ذات الإرادة القوية والعزيمة الصادقة في الدفاع والذود عن أعراض المسلمين ، وحرماتهم ، وأرضهم ، ودينهم في بلاد الأندلس ضد أعدائهم مع أن أصحاب هذه النفوس في الأعمال الخيرية بمختلف أنواعها متعاونون .

والاستفهام في " ألا نفوس " "و أما على الخير" ..... غرضة البلاغي هو العرض والحث والتحضيض .

وقولة : "لها همم " فيه تقديم المسند على المسند إليه والغرض البلاغي هو " التخصيص"، وبيان كونها خبر وليس صفة .

ثم يصف الشاعر ما حدث لملوك الطوائف في الأندلس بعد دخول الأسبان وأعوانهم ، وتدمير كل شيء جميل في الأندلس فيقول :

٣٦) يامن لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان

والذلة : الهوان والانكسار ، والعزة : المجد والرفعة والمكانة .

أحال : حول وبدل وغيّر من التحويل والتغيير.

يستغيث الشاعر باكياً لما حدث لهؤلاء الملوك، فقد تبدل حالهم وحال رعيتهم من عز ورفعة إلى ذل وانكسار ومهانة ، وهذا كله بسبب الغزاة والمعتدين الحاقدين على الإسلام وأهلة ، فقد دمروا وأفسدوا كل شيء في الأندلس.

فهو يستغيث بالمسلمين الأقوياء حيث إن الجهاد في مثل هذه الحالة فرض واجب على المسلمين .

يا من لذلة : أسلوب إنشائي طلبي ، نوعة نداء ، غرضة البلاغي "الاستغاثة " .

وبين "ذلة وعز " طباق إيجابي قيمته الفنية توضيح المعنى وتقويته ، وفي قوله : أحال حالهم : جناس ناقص .

٣٧) بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الضد عبدان

يصف الشاعر حال الملوك من أهل الأندلس بأنهم كانوا في الماضي القريب أسيادا وحكاماً وأمرءا في منازلهم وبلادهم ومعززين مكرمين ، واليوم تبدل حالهم فصاروا في بلاد النصارى والكفر عبيداً وخداماً لأعدائهم من الأسبان وأعوانهم ، فهل بعد هذا من ذل ؟ !! ، وهل بعده من هوان ؟ !!!.

وبين " الأمس ، واليوم " طباق إيجاب ، وكذلك بين قوله :" ملوك وعبدان" طباق .

منازلهم : كناية عن الأندلس في عهد الإسلام .

وانظر إلى ضمير الفصل " هم " في قوله :" واليوم هم " ففيه توثيق وتوكيد للذل والعبودية ، والبيت كله أسلوب خبري الغرض البلاغي منه " الأسى والتحسر" .

٣٨) فلو تراهم حياري لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان

تراهم : تبصر حالهم ، وما صاروا إليه ، حياري : جمع حيران أي تائهين ضائعين .

دليل : مخرج أو طريق أو مرشد .

يصور لنا الشاعر ما حلّ بأهل الأندلس بعد سيطرة النصارى على بلادهم ، فلو أبصرت حالهم وما صاروا إليه من تيه وضياع ، لا مخرج ولا مرشد لهم كأنهم غارقون في الظلام لا يعرفون مخرجاً لما حل بهم ، حيث تحول حالهم من عز ورفعة وجاه إلى أبشع صور الذل والهوان .

فلو تراهم : أسلوب شرط ، حرف الشرط " لو " وفعل الشرط " تراهم " وجواب الشرط محذوف تقديره : " لرأيت أمرا عظيماً" ، وفي الكلام كناية عن " صفة "وهي ضياع مجدهم ومهابتهم .

وقوله : عليهم من ثياب الذل ألوان فيه مبالغة في الذل والهوان وانظر إلى تقديم المسند "عليهم" على المسند إليه "ألوان "والغرض البلاغي هو التخصيص ومراعاة نظم الكلام .

وفي قوله : ثياب الذل استعارة مكنية حيث شبة الذل بلباس ثم حذف المشبه به وأتي بلازم من لوازمه وهي ثياب ، وفي قوله : "ألوان" إيحاء بتعدد صنوف وأشكال الذل والهوان.

٣٩) ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان

هالك : راعك وأفزعك

الأمر : المشهد أو المنظر أو الحدث

استهوتك : تملكتك وسيطرت عليك

يصور لنا الشاعر مشهدا مأساويا لحال ملوك الأندلس وأهلها بعد سيطرة النصارى على بلادهم ،وساقوا ملوكها وأحرارها ليبيعوهم في سوق النخاسة وهم يبكون بكاءً مريرا لما حل بهم من ذل وهوان، إذا رأيت كل ذلك لأفزعك هذا المنظر من هوله وفظاعته ولتملكتك وسيطرت عليك الأحزان من هول المنظر .

وانظر إلى أسلوب الشرط " لو رأيت ... لها لك " ، وجواب الشرط مؤكد باللام ، كل ذلك يدل على الفزع وشدة الهول لتقلب الحال من العز إلى الذل.

وفي قوله :" استهوتك أحزان" استعارة مكنية حيث شبه الأحزان بإنسان مسيطر، ثم حذف المشبة به وأتى بلازمه وهو " استهوى " .

٤٠) يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

حيل : فرق

يصور لنا الشاعر حال الأمهات وأطفالهن أثناء بيعهم في سوق العبيد ، والتفريق بين الأم وطفلها رغما عنها ، فكأنها أثناء التفريق بينها وبين طفلها تفارق روحها الجسد من صعوبة ذلك عليها ، فالأم تحتمل كل شيء من أجل طفلها ، فكيف ستصبر على فراقة ؟!!! .

وفي البيت " تشبيه تمثيلي"[١]، والمشبة هو فراق الأم لطفلها مع ما بينهما من شدة روابط واندماج ، والمشبه به هو حال انتزاع الروح من الجسد والغرض من التشبيه هو التوضيح .

حيل : بني الفعل للمجهول ، والغرض منه إظهار العجز عن عدم حدوث التفرق بينهما، والبيت كله يفيد الأسى والتحسر .

٤١) وطفلة ما رأتها الشمس إذ برزت كأنما هي ياقوت ومرجان

برزت : خرجت وطلعت ، والياقوت والمرجان : نوعان من الأحجار الكريمة فالشاعر يصور لنا مشهدا أخرا لحال بنات الأندلس ، فيصفهن بأنهن ناعمات وحسنهن وجمالهن مثل الشمس ، وذلك عند خروجهن من خدرهن ، فكأنك ترى لمعانا وصفاء مثل الياقوت والمرجان .

وفي قوله : " كأنما هي ياقوت ومرجان " تشبيه الجمع حيث شبه الطفلة بالياقوت وشبهها بالمرجان ، والغرض البلاغي هو الاسترحام والاستعطاف كما يدل على ذلك سياق البيت ومعناه .

٤٢) يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

يقودها : أي يجرها ويسحبها ، والعلج : الفظ الغليظ الضخم من العجم، للمكروه : للبيع أو لأعمال أخرى تكرهها الطفلة .

مكرهة : مرغمة أو مغصوبة ومجبرة .

باكية : تذرف الدموع ، حيران : متعب ومتحسر .

يصور لنا الشاعر مشهداً مأساويا آخراً من مشاهد الذل والهوان الذي تلاقيه كل طفلة في بلاد الأندلس بعد سيطرت النصارى عليهم ، وعلى أرضهم التي عاثوا فيها فساداً وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وساقوا كل طفله حرة للبيع في سوق النخاسة مرغمة

---

[١] يرى الإمام عبد القاهر الجرجاني أن تشبيه التمثيل ما كان وجه الشبه فيه أمراً غير واضح ، يحتاج إلى تأول ، بينما يرى السكاكي أن تشبيه التمثيل إنما يكون إذا كان الوجه مركباً عقلياً ، ويرى الخطيب القزويني أن تشبيه التمثيل ما كان الوجه فيه مركباً مطلقاً حسياً كان أو عقلياً ينظر أسرار البلاغة ص١٥٠ومفتاح العلوم ص ١٨٥، والإيضاح ص ٢٤٩

مجبرة على هذا الحال ، وعلى القيام بأعمال أخرى ، وعيونهن تنهمر منها الدموع كالمطر من شدة الحزن والأسى لحالهن الذي صرن إليه ،حتى أن قلوبهن تكاد تنفطر من شدة الحسرة .

وانظر إلى التعبير بالمضارع " يقودها " فهو يدل على التجدد والحدوث ، وفيه ضمير يعود على الطفلة المقادة .

وفي قوله : " للمكروه مكرهة " جناس ناقص .

و"مكرهة" حال فهي يفعل بها ذلك حال كونها مكرهة عليه لا تستطيع الدفاع عن نفسها.

و"العين باكية": جملة اسمية في محل نصب حال ثان، و"القلب حيران" جملة اسمية أيضا في محل نصب حال ثالث .

٤٣) لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

لمثل هذا : أي لكل حال أو مشهد يشبه هذا المشهد المذكور .

والكمد : شدة الغيظ

هذا : اسم إشارة جئ به للتضخيم والتهويل .

هذا هو البيت الأخير من تلك القصيدة الرائعة ، وفيه يقول الشاعر : لكل حال أو مشهد يشبه ما حدث لبلاد الأندلس، فإن قلب الإنسان يذوب وينفطر من شدة الغيظ إن كان فيه إسلام وإيمان ، وذلك مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : " من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم "

وانظر إلى التعبير في " لمثل هذا " فهو يدل على أن الشاعر حكى لنا بعض الأشياء دون الكل ، فالأمر أشد و أكثر من أن يحكي جميعه .

وفي قوله : " يذوب القلب ": استعارة مكنية ، حيث شبة القلب بالثلج أو الشمع مثلا ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بلازم من لوازمه وهو " يذوب " والغرض البلاغي من الاستعارة هو " التوضيح " .

وقوله : "إن كان في القلب ....." أسلوب شرط ، أداة الشرط " إن " ، فعل الشرط " كان " جواب الشرط محذوف ، يدل عليه السياق أي إن كان في القلب إسلام وإيمان يذوب القلب كمدا .

وانظر إلى " إن " الشرطية وهي تدل على الشك والتقليل .

وقد قدم خبر كان " في القلب " على المسند إليه " إسلام" والغرض منه تقوية الحكم وتقريره مع ما فيه من مراعاة الوزن والقافية .

وهكذا تجد خاتمة القصيدة بهذا المشهد المفزع الذي خص فيه الشاعر حديثه عن الملوك والأطفال الصغار، والمآسي التي تعرضوا لها بعد أن كان حديثه عن أهل الأندلس بوجه عام قبل ذلك، جاء هذا الجزء معبرا عن مكنون فؤاده مؤثراً أيما تأثير، فقد أدى الغرض المرجو منه وكان مليئاً بالصور البيانية التي أضفت على الكلام حسنا وجمالاً ، وجعلتك تشعر بالمشهد المهول ماثلاً أمامك معبراً أتم تعبير عن الذل والهوان ، وقد استخدم الشاعر أسلوب " التشخيص والتجسيم " حتى إذا قدر لرسام ماهر أن يرسم ذلك في لوحة فنية رائعة معبرة لهذه المشاهد لأمكنه ذلك . وكل هذا يدل على تمكن الشاعر من اللغة والبلاغة ، وقد ساعده على ذلك إحساسه الصادق ولوعته الخالصة .

***

وبعد :

فإن نونية أبي البقاء الرندي تعد نموذجاً فريداً في رثاء الممالك الزائلة ، أجاد فيها الشاعر في جميع ما اشتملت عليه القصيدة ، فمثلاً من حيث :

أولاً / الوجدان والعاطفة: -

هي عاطفة إسلامية حزينة مملوءة بالحزن والحسرة والأسى لما شاهده الشاعر من إذلال ومهانة للمسلمين في الأندلس بعد ضعفهم وسيطرة أعدائهم الصليبيين عليهم وما أحدثوه في البلاد من خراب دمار .

فقد شاهد الشاعر كل ما حصل لإخواننا المسلمين، وتأثر به ، ونقل إلينا في هذه الأبيات بعض تلك المشاهد وليس كلها .

ومن الكلمات التي تدل على الحزن : دهي الجزيرة ، أصابها العين ، تبكي الحنيفية البيضاء ، المحاريب تبكي ، المنابر ترثي ، أبَعد حمص ، يستغيث بنو المستضعفين ، قتلى وأسرى ، يا من لذله قوم ، كانوا ملوكاً ، عبدان ، حيارى ، عليهم من ثياب الذل ألوان ... وغيرها من الألفاظ المعبرة عن شدة الحزن والحسرة لما حدث لبلاد المسلمين .

ويتضح لنا جلياً الصدق الشعوري في هذا النص عند قراءتنا وتحليلنا له ، فقد حرك النص إحساسنا الداخلي خاصة أن ما حصل أوحلّ سابقاً في الأندلس من خراب ودمار وإهانه وإذلال للمسلمين ، وانتهاكا لحرماتهم ، حصل في فلسطين والعراق لإخواننا المسلمين ، من ذل وهوان وانتهاك حرمات ودمار وخراب ومازال مستمراً من قبل أعداء الإسلام والمسلمين .

ثانياً / الفكرة: -

تناول هذا النص الحديث عن نكبة الأندلس برثاء الشاعر لها ولأهلها ، وما حل فيها من خراب ودمار وإذلال وإهانة وقتل ، وأسر وتشريد ، واغتصاب لهم مستنجداً ببقية المسلمين من بلاد إفريقيا والمشرق العربي ليدافعوا عن إخوانهم المسلمين ، ويقفوا سداً منيعاً في وجه القوات الصليبية المتمثلة في الأسبان وأعوانهم.

وذلك حتى يحفظوا كرامة وعزة إخوانهم من أهل الأندلس ويصونوا أعراضهم وقد صوّر لنا الشاعر في هذا النص بعض ما شاهده وليس كل ما شاهده تصويراً دقيقاً يجعل القارئ يتصور ما حدث في الأندلس كأنه يشاهده أو يراه أمامه.

وهذا يدل على المقدرة الشعرية العالية عند الشاعر .

ثالثاً :/ الصور التعبيرية :ـ

(١) الألفاظ والجُمل

الألفاظ :ـ

كما نعرف جميعاً أن اللفظة هي أداة التعبير عما يشاهده الشاعر أو الأديب ،فقد استخدم الشاعر ألفاظا ذات دلالات بلاغية قوية ، استطاع من خلالها تصوير المشهد الذي حدث في الأندلس وما حلّ بأهلها من ملوك ورعايا من ذل ، وإهانة ، وأسر، وتشريد ، ورِق، وصوّر ذلك أدق تصوير .

وإذا تفحصنا كل لفظة من ألفاظ هذه القصيدة فإننا لا نستطيع حذف أيّ لفظة من ألفاظها ، ونضع بدلاً عنها لفظة أخرى تؤدي نفس الغرض والدلالة ، وهذا يدل على براعة الشاعر ومقدرته الشعرية القوية .

كذلك نلاحظ تناسب كل لفظة مع ما قبلها وما بعدها، فلا توجد في القصيدة ألفاظ غريبة أو عامية ، بل هي ألفاظ فصحى. أيضا فقد خلت ألفاظ القصيدة من مخالفتها لقواعد النحو والصرف .

وعموماً فإن ألفاظ القصيدة سهلة وواضحة معبرة عن الأسى،وتتميز كذلك بالقوة والرصانة والفصاحة ومتناسبة مع الموضوع .

الجمل :

نلاحظ أن عدد الجمل الفعلية أكثر من عدد الجمل الإسمية، وكثرة الجمل الفعلية يدل على الحدوث والحركة والتجدد ، والاضطراب ، والتحول ، فقد تحول حال الأندلس من عمار إلى خراب ، ومن سكينة وأمان إلى خوف وقلق، وتحول حال أهلها من عز إلى ذل ومهانة ،ومن رقيّ وحرية وسيادة إلى انحطاط ، ورقٍ ، وذل ، وعبودية ، وأسر ، وقتل .

وقد أبدع الشاعر في استخدام أساليب القصر والتقديم والتأخير والحذف في هذه القصيدة لتوصيل بعض ما شاهده إلى بقية المسلمين في إفريقيا وبلاد المشرق العربي

أملا منه في تحفيزهم ، وحثهم للدفاع عن بلاد المسلمين ((الأندلس)) ، وحفاظاً علـى إخوانهم المسلمين ، وصوناً لأعراضهم وكرامتهم .

(٢) الصور والأخيلة :

إن الصور الخيالية قليلة في هذه الأبيات ومع قلتها فقد نجح الشاعر في تشخيص الأمور المعنوية وتجسيدها ، وبثّ الحياة والحركة في الجمادات التي جعلت كـل مـن يقرأ هذه القصيدة يتصور ماحلّ في الأندلس وكأنة كان موجوداً هناك

وأبرز تلك الصور :

يارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

وكذلك الاستعارات المكنية في هذه القصيدة ومنها :-

تبكي الحنيفية البيضاء، المحاريب تبكي ، المنابر ترثي ،... وغيرها .

كذلك التشبيه في قوله:

يا راكبين عتاق الخيل ضامـرة كأنها في مجال السبق عقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفـة كأنها في ظلام النقـع نيران

يا رب أم وطفل حيل بينهمـا كما تفـرق أرواح وأبدان

وطفلة ما رأتها الشمس إذ برزت كأنما هي يـاقوت ومرجان

كما يوجد في هذه القصيدة الطباق والمقابلة في قولة :-

من سره زمن ساءته أزمان ، يا من لذلة قوم بعد عزهم .

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الضد عبدان

كذلك الاستفهام الذي خرج عن معناه الأصلى إلى معان أخرى بلاغية تفهـم مـن السياق كقولة :-

أين الملوك ذوو التيجـان مـن يمـن وأين مـنهم أكاليـل وتيجـان ؟

وأيـن ماشـادة شـداد فـي إرم وأين ما ساسه فـي الفـرس ساسـان؟

وأين ما حـازه قـارون مـن ذهـب وأين عـاد وشـداد وقحطـان ؟

فالغرض البلاغي من الاستفهام في الأبيات السابقة هو التعجب .

فاسأل بلنـسية مـا شـأن مرسيـة وأين شاطبـة أم أيـن جبـان ؟

وأيـن قرطبـة دار العلـوم فكـم من عالم قد سـما فيهـا لـه شـان ؟

وأين حمص وما تحويـه مـن نـزه ونهرهـا العـذب فيـاض ومـلآن ؟

فالغرض البلاغي من الاستفهام في الأبيات السابقة هو الأسى والتحسر.

وغيرها من أساليب الاستفهام .

كذلك يظهر المجاز العقلى في قوله : فاسأل بلنسية ، فهو مجاز عقلى حيث أوقع الفعل "اسأل" على تلك المدينة فهو مجاز عقلى نسبته نسبة إيقاعية .

وقوله: فقد سرى بحديث القوم ركبان ، مجاز لغوي علاقته(الجزئية).

وأيضا قوله : والقلب حيران ، مجاز لغوي علاقته ((الجزئية)) .

كذلك أسلوب النداء الذي جاء لغرض بلاغي يفهم من السياق كقوله :

يا أيها الملك البيضاء رايته أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ، يا من لذلة قوم بعد عزهم ، يارُب أم وطفل حيل بينهما ...

فالغرض البلاغي من النداء في الأبيات السابقة هو ((الاستغاثة وطلب النجدة والتحسر)).

(٣) الموسيقي :-

البحر العروضي :-

هذه القصيدة من بحر البسيط والذي وتفعيلاته وأوزانه كالتالي :-

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

يدخل زحاف ((الخبن)) [١]وهو : حذف الثاني الساكن من تفعيلة مستفعلن /٥/٥//٥ فتصير متفعلن //٥//٥

كذلك يدخل ((الخبن)) على تفعيلة فاعلن /٥//٥ فتصير فعلن ///٥

أما عروض هذا البحر فهو ((مخبون))[٢] فتفعيلة فاعلن/٥//٥تصير فعلن///٥

أما ضربه فتدخل عليه علة (القطع)[٣]، وهي : حذف آخر الوتد المجموع وتسكين ماقبله على تفعيلة فاعلن /٥//٥ فتصير فاعل /٥/٥ وتحول إلى فعلن / ٥ / ٥

وعلية فيكون الوزن المشهور لهذا البحر هو كالتالي :-

مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن

---

[١] علم العروض والقافية ص ٤٦ .

[٢] السابق ص ٤٨

[٣] السابق ص ٤٨

القافية :

القافية في هذه القصيدة هى النون ، وكذلك حرف الروي هو النون .

وتسمي القصيدة بحسب حرف الروي، فيمكن أن نسمي هذه القصيدة بـ ((نونية أبي البقاء الرندي)) .

ويتضح لنا الجرس الموسيقي من خلال وحدة الوزن والقافية،كذلك تكرار حرف الروي ((القافية)) النون فهو حرف فيه نبرة حزن وأسى وتحسر، وتكرار هذا الحرف يساعد في توضيح وإبراز العاطفة الحزينة لدى الشاعر بسبب ما حلّ ببلاد الأندلس وبأهلها .

كذلك تتبعث الموسيقي الداخلية من خلال الطباق ، والمقابلة ، والجناس وهو كثير في تلك القصيدة .

أيضا تتبعث الموسيقي من خلال تكرار حروف أخرى غير حرف الروي وكذلك من خلال قرب مخارج الحروف.

وفي الختام ، فإن جميع ما تقدم يصور لنا الإيقاع الموسيقي الحزين المسيطر على الشاعر في هذه القصيدة وعلى عاطفته ، ووجدانه ، وأيضا على الفكرة التي سعى الشاعر من خلال قصيدته هذه إلى توصيلها إلى مسامع المسلمين في إفريقيا والمشرق العربي[1].

***

[1] ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ص ٩٨ .

الخاتمة

الحمد لله تعالى في البدء وفي الختام وفي كل وقت وحين ، والصلاة والسلام على النبي الأمين المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه وجميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين .

وبعد :

فإن هذه القصيدة لم ينظمها الشاعر في مدح الأمراء لنيل عطاياهم ، وإنما هي استغاثة ولهفة يبثها الشاعر للسامعين من المسلمين عامة ، ولمن وجّه إليهم النداء من الملوك والفرسان خاصة ، يدعوهم إلى الجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين في بلاد الأندلس.

وتلمس في هذه القصيدة الروح الأندلسية في بيئتها وقوة نظمها وغرضها الشعري وألفاظها المعبرة ،وأحداثها المؤلمة .

ومن أهم نتائج هذا البحث :

١. من خلال شرح وتحليل تلك القصيدة تجد ألفاظها نقية وصافية ودقيقة وقوية ، فقد أحسن الشاعر استخدام الألفاظ الموحية بطريقة فنية مؤثرة، وبعد عن التكلف والعامية والتعقيد .
٢. والمعاني صادقة لا ادعاء فيها ولا تزييف ، ولا مغالاة، وهي معاني واضحة ومترابطة فيما بينها مصورةً ما حدث في بلاد الأندلس بدقة وإحكام .
٣. أما الصور البيانية والأخيلة فهي قوية التعبير ، والتأثير في النفس ، وهي مستمدة من البيئة والطبيعة الأندلسية الإسلامية المألوفة له ولغيره ممن حوله ، فقد راعى فيها الدقة والإحكام، بحيث تظهر روعتها المؤثرة في النفس ، مؤدية الغرض المقصود منها .
٤. ومن حيث الموسيقى فقد ساعدت في توضيح المعنى بعبارات منسقة في إيقاع موسيقي جميل ، موضحة صدق التجربة وقوة العاطفة ، فقد كانت موسيقى القصيدة حزينة تفيض بالأشجان، مؤثرة بنغماتها التي تنم عن مكنون فؤاد الشاعر .
٥. كما تبدو ملامح قوة الشاعر وأصالته الشاعرية واضحة في القصيدة .

٦. وبناء القصيدة محكم ، ينتقل الشاعر من المقدمة إلى الغرض المقصود من القصيدة إلى الخاتمة بكل سهولة ويسر ، كذلك فإن الوحدة العضوية للقصيدة واضحة جلية ، فالموضوع أو الغرض واحد ، والجو النفسي المؤثر واحد .

نعم : إن نونية أبي البقاء الرندي من أجمل وأروع قصائده الشعرية ، وتبرز موهبته الشعرية وحسن استخدامه للغة حقيقها ومجازها في طرح فكرته وانعكاس ذلك على المتلقي .

وكان لهذه القصيدة تأثير كبير لم يكن قاصراً على وقتها بل تجاوزها إلى قرون عديدة ومازال لها صدى ورونقاً حتى الآن .

والله أسأل أن يكتب سبحانه لهذا البحث التوفيق والقبول إنه سميع الدعاء.

***

مراجع البحث

١- الأدب العربي في الأندلسي (تطوره ، موضوعاته وأشهر أعلامه د / علي محمد سلامة – ط الدار العربية للموسوعات – ١٩٨٩ م .

٢- الأدب العربي في الأندلس– د/ عبد العزيز عتيق – ط دار الآفاق العربية بالقاهرة.

٣- أسرار البلاغة – للإمام عبد القاهر الجرجاني – ط دار إحياء العلوم – بيروت .

٤- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – للإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام – تحقيق أ/ مصطفى السقا – ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت –١٩٦٦ م.

٥- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني – ط دار الكتاب اللبناني – بيروت١٩٧٥م.

٦- البلاغة العربية – د/ محمد ربيع – ط دار الفكر بالأردن –١٤١٢ هـ ١٩٩١ م .

٧- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى و أثرها فى الدراسات البلاغية ، أ/د. محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – الطبعة الثانية – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

٨- تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات – د/ شوقي ضيف – ط / دار المعارف بالقاهرة .

٩- التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين ، أ/ حمدي عبد المنعم حسين ، ط/ دار المعرفة الجامعية ١٩٩٧ م .

١٠-تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع ، للخطيب القزويني تحقيق د /ياسين الأيوبي– ط المكتبة العصرية – بيروت ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م .

١١-جواهر البلاغة – أ/ السيد أحمد الهاشمي – تحقيق محمد التنوخي ، ط / مؤسسة المعارف بيروت ١٩٩٩ م .

١٢-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى – تحقيق الشيخ محمود شاكر – طبعة مكتبة الخانجى بمصر .

١٣-خط سير الأدب العربي د/ عبده عبد العزيز قلقيله – ط – دار الفكر العربي .

١٤-ديوان بشار بن برد – شرح حسين حموي – ط – دار الجيل بيروت١٤١٦هـ ١٩٩٦ م .

١٥-شرح قطر الندى وبلّ الصدى لابن هشام الأنصاري ، تحقيق الفاخوري – ط دار الجيل بيروت ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م .

١٦-علم العروض والقافية – د عبد العزيز عتيق – ط دار النهضة العربية بيروت .
١٧-في الأدب الأندلسي – د/ محمد رضوان الداية – ط دار الفكر المعاصر بيروت – ٢٠٠٠م . ١٤٢١ هـ .
١٨-لسان العرب للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور – ط دار صادر بيروت ١٩٩٧ م .
١٩-مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام – تحقيق الفاخوري ط دار الجيل بيروت ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م .
٢٠-موسيقى الشعر العربي أوزانه وقوافيه د/ محمد عبد المنعم خفاجي – ط دار بن زيد بيروت .
٢١-من أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم- د/ محمود عبد العظيم صفا ط دار الكتاب الجامعي بمصر ١٤١٤هـ ١٩٩٣ م
٢٢-من أسرار النداء في القران الكريم – د/ بغدادي إبراهيم الصحابي – ط مركز الإنتاج والتدريب الصناعي .
٢٣-نظرات في البيان د/ محمد عبد الرحمن الكردي – مطبعة السعادة بمصر ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

***